الإسلام

في ضوء البحوث النفسية الحديثة

— ١ —

للدكتور محمد البهي
أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية أصول الدين

لم يختلف موضوع البحث النفسي في الحديث عنه في القديم، فقد كانت «النفس الإنسانية» ومازالت موضوع هذا البحث منذ أن عرف للإنسان الباحث استقلال في بحثه عن تعاليم الكهان في الجماعات البشرية الأولى إلى عصرنا الحاضر.

والجانب الذي يفترق به أحد النوعين عن الآخر هو فقط في النظرة التي يعالج بها موضوع «النفس». فبينما كان يتجه القدامى من المعالجين للنفس الإنسانية - وكذا من سلك طريقهم من علماء القرون الوسطى - إلى محاولة الكشف عن «حقيقتها»: ماهي؟ وهل لها استقلال ذاتي عن الجسم؟، وعن مصدرها ومصيرها: هل هي من عالم الأزل وسترد إليه؟ أم تنتسب إلى عالمنا الذي نعيش فيه؟ وعن أقسامها وأنواعها: منها ما هو خير، ومنها ماهو شرير، ومنها ماهو مزيج من الخيرية والشرية . . . إلى غير ذلك من التساؤل الميتافيزيقي، خائضين في الإجابة والشرح لما كانت تقول به فلسفة «ما بعد الطبيعة» تحت تأثير آراء التعاليم الدينية الأولى على نحو مايذكر في علم القصص الديني القديم (الميثولوجي)، بينما كان ينحو بحث القدامى هذا النحو إذا بالمحدثين يعدلون عن هذا الاتجاه الميتافيزيقي في تحديد مشاكل النفس وتفسيرها إلى اتجاه آخر يجعل من أحوال «النفس» الخارجية التي تخضع للملاحظة الإنسانية أو التجربة العلمية موضوع الشرح والتحليل والعمل السيكولوجي على العموم.

ولسنا الآن بصدد ذكر العوامل التي دفعت المحدثين إلى مخالفة منهج القدامى ونظراتهم في ميدان البحث النفسي، لأن ذلك موضوع آخر يطرق فيما بعد.

* * *

وإذا كانت نظرة المحدثين في معالجتهم «النفس» تجاوزت حقيقتها إلى ما يصح أن يسجل من أحوالها على العموم فقد استعاضوا كذلك عما ألفه القدامى من الحديث عن «مبدإ» النفس و«معادها» وعما اعتاد هؤلاء أن يرسموه من طريق لحياتها، من كونها: تبتدىء بالهبوط من أعلى وتنتهي من جديد بالصعود إلى ذلك الأعلى والخلود فيه، استعاضوا عن ذلك بوضع خط سير آخر: بدايته البدائية، ونهايته الرشد والنضوج.

فتحدثوا عن تطور للنفس، وعن مراحل لهذا التطور. وعنوا ببحث الطفولة ومظاهرها كمرحلة أولى في هذا التطور، وكذا ببحث البلوغ النفسي أو العقلي كمرحلة أخيرة له. واستخلصوا من مظاهر المرحلتين خصائص متقابلة، وأرجعوا خصائص كل مرحلة منها إلى قوانين عامة، لها من الاعتبار والقيمة العلمية ما للقوانين النفسية الأخرى - المنتزعة من مجال بحث نفسي آخر -. أما الحلقة الوسطى التي تقع بين هاتين المرحلتين في سير التطور النفسي - وهي من سن السابعة إلى الرابعة عشر تقريبا - فلم يروا لمظاهرها ما يجعلها مستقلة تماما عن مظاهر المرحلة السابقة عليها ومظاهر الأخرى اللاحقة لها؛ بل وجدوا فيها من خصائص كل من المرحلتين ما ليس على سبيل الانفراد أيضا. ولذا اعتبروا هذه الحلقة من حلقات تطور الإنسان معبرا، ونظروا إليها كمرحلة انتقال من طور قائم بذاته إلى آخر مستقل عنه تماما. ومن هنا ندرك: لماذا عنوا ببحث الطفولة الإنسانية ثم ببحث البلوغ العقلي أكثر من عنايتهم ببحث المرحلة الوسطى بينهما.

* * *

وقاسوا على الطفل في مرحلة الطفولة الأولى — وهي من السنة الأولى إلى السابعة — الإنسان البدائي في درجة البلوغ الجنسي، وهو كل إنسان لم ينضج نضوجا عقليا ونفسيا حسب معاييرهم. صنعوا ذلك لوجود الشبه في المظاهر النفسية بين الاثنين. وكلمة: «الطفولة» إذن عنوان على عدم الرشد، وتقابل تماما - كما ذكرنا - البلوغ العقلي أو النضوج الإنساني.

وتبع علماء النفس في تقسيم الإنسان إلى فرد بدائي غير رشيد وآخر بالغ أو ناضج حسب تحديدهم لمظاهر النوعين علماء الاجتماع في تقسيم الجماعة الإنسانية إلى بدائية أو فطرية وأخرى ناضجة

أو متحضرة . وراعوا فى تقسيم الجماعة على هذا النحو نفس المقاييس التى عرفت لعلماء النفس .

ونهج منهج النفسيين والاجتماعيين مؤرخو العقائد الدينية فى موازنتهم بين الأديان . فجعلوا منها ضربا بدائيا وآخر راقيا . وقصدوا بالأول ما كانت معتقداته تصور مظاهر الطفولة ، وبالثانى ما كانت معتقداته ووصاياه تمثل مظاهر البلوغ العقلى للانسان . فاستعاروا التقسيم لموضوعهم وكذا الأساس الذى قام عليه من علماء النفس أيضا .

وبالحديث عن مظاهر الطفولة عند النفسيين سنعرف بطريق المقابلة مظاهر الرشد أو البلوغ العقلى عندهم ، ويمكن بالتالى عن طريق الاسترسال تصور الجماعة البدائية والجماعة المتحضرة عند علماء الاجتماع ، وكذا أخذ صورة ، عن الديانة البدائية والأخرى الراقية عند علماء الأديان .

* * *

وفى الحديث عن مظاهر الطفولة النفسية سنقصر الكلام على بعضها — كأمثلة فقط — مما لبيانه أثر فى توضيح الاسلام كدين وهو هدف هذا الحديث . سنقصر الكلام على وصف :

١ ـ إدراك الطفل فى مرحلة الطفولة الأولى ـ من السنة الأولى إلى السابعة ـ ،

٢ ـ وجدانه ،

٣ ـ صلته بالعالم الخارجى ،

٤ ـ سلوكه وتصرفاته ،

٥ ـ أحكامه وتقديره .

* * *

١ — ادراكه :

فى الجانب الأدراكى : يقف إدراك الانسان فى مرحلة الطفولة الأولى عند حد المحسوس من الأشياء . ثم ما يدركه من ظاهر الشىء هو الشىء على الحقيقة عنده . وهكذا :

(ا) جزء الشىء يعبر فى نظره عن الشىء كله ، وهو كأنه هو : فالبرتقالة مثلا لا يدركها بكل مقوماتها من شكل ، ولون ، وطعم ، وغير ذلك من خصائصها التى تتصل بأليف البرتقال وعصيره مثلا بل بما ينجذب إليه إدراكه من ظاهرها . فلونها الأصفر الفاقع كاف عنده فى تميزها عن فاكهة أخرى .

(ب) والاجمال هو التفصيل فى رأيه : فلون البرتقالة ـ فى المثال السابق ـ يحمل فى طيه بقية العناصر الأخرى التى لها دخل فى ماهية البرتقالة من شكل ، وحجم ، وخشونة أو نعومة فى الملمس ، ومذاق فى الطعم . . . إلى غير ذلك .

(ح) والشىء وأثره أو لازمة من لوازمه واحد فى نظره . فقد لوحظ أن طفلا فى سن الرابعة يقبض على شعاع الشمس فى غرفته ـ وقد وصل إليها عن طريق النافذة ـ ويحاول بفتح ذراعيه ثم يضمهما على هذا الشعاع القبض على الشمس حتى لا تخرج من الغرفة قبل أن تجىء أمه التى أخذ يناديها لترى الشمس حبيسة بين ذراعيه . كما لوحظ من طفل آخر فى سن الخامسة من عمره أنه أخذ يصيح ويبكى . فلما سأله أبوه الصاحب له عن سبب بكائه أراه ما سقط على يده قائلا له ، إنها دودة من دود القز ، تلدغه . ولم يتبين أبوه طبعا إلا بعض خيوط القز ، إذ ذلك هو الموجود فعلا على يد صغيره . لكن فى إدراك الطفل ؛ دودة القز وخيوطها سواء ، ولذا منح الخيوط خصائص الدودة ، وهو اللدغ .

وإدراكه إذن للشىء الخارجى على هذا النحو إدراك ناقص ، لأنه لم يقف على الشىء كما هو فى الواقع . ولذا لا يستطيع إدراك حقيقته ، وهى ذلك القدر العام الذى تشترك فيه جملة من الأشياء الخارجية والذى يحمله كل شىء منها خلف ظاهره أو على حد تعبير الناطقة وراء «مشخصاته» . كما لا يستطيع من باب أولى أن يدرك ما يجمع مفردات العالم كلها من «معنى الوجود» أو مما يسميه الناطق «بالجنس الأعلى» . وبالتالى لا يدرك ما وراء ذلك من «الحقيقة العليا» التى هى مصدر الوجود كله وهو الله المعبود . فالله المعبود وراء كل ما يحس ، لا يدرك عن طريقه أية حاسة من الحواس يتصور ذهنا فقط . ولأنه وراء المحسات كان كليا ، ولأنه مصدر الآحاد كلها والمجمع الأخير لها كان فردا واحدا .

والاذعان البدائى فى الناحية الإدراكية يشبه الطفل فى مرحلة طفولته الأولى . يقف بإدراكه عند حد ما يدرك بالحس من الأشياء ، ويعزيه منها ما هو أشد ظهوراً فيها من لون ، أو حجم دون ما لها من ذوات وقيم .

وجزء الشيء عنوان للشيء عنده : يعبر عن حيوان ما لو سئل عنه — بحكاية له من صوت أدركه عن طريق السمع ، أو بوصف آخر أدركه بإحدى الحواس الأخرى .

وقلما يتناول وصفه إياه عناصره المتعددة فضلا عن ماهيته وحقيقته .

ولأنه يقف في إدراكه عند حد المحسوس كان إلهه دائمـا كائنا محسا مما يقع في بيئته الجغرافية ووطنه المحلي . وليست القيمة الذاتية للمعبود هي التي دفعت ذلك الانسان البدائي إلى عبادته — لأنه لم يصل إلى تلك القيمة بعد — بل الصدفة وحدها هي التي ساقته لما عبد وأله .

وإذا كان جنس من الأجناس البشرية — كقدماء المصريين ، واليونان ، والأمم الأسيوية القديمة ، أو شعوب أواسط أفريقيا واستراليا اليوم — يحتل في سكناه رقعة واسعة وجدنا في تاريخه في عهود ضعفه عدة معبودات ، لا تخرج عن كونها كائنات محسة ، ووجدناها موزعة في تلك الرقعة حسب جماعاته .

وكثيرا ما يكون تكتل طوائفه وجماعاته ناشئا عن اتحاد الاتجاه نحو عبادة كائن معين ، وليس عن سكنة إقليم بالذات أو انتساب إلى قبيلة بعينها .

وأهم ما يحدد الوثنية أن المعبود فيها محسوس . أما أنه متعدد أو متغير ، أو غير مستمر النفع أو الضر ، أو خلاف ذلك مما يذكر في خصائص الوثنية فمن لوازم هذا الجانب الرئيسي فيها ، وهو كون المعبود محسوسا . إذ من طبيعة المحسوس أن يكون متعدداً بحكم تشخصه ، وعن هذا التشخص كان تغيره ، وبالتالي كان غير دائم النفع والضر .

وهكذا يجعل مؤرخوا الأديان وثنية أي شعب عنوانا على ضعف الجانب الأدراكي فيه ، ووثنية الفرد عنوانا على بدائيته ، للسبب الذي ذكرنا من وقوفه عند حد المحسوس فيما اعتقد وعبد .

والديانة الفارسية (الزرادشتية) — لأنها قامت على تأليه إلهين معنويين هما الخير والشر ، أو الفضيلة والرذيلة — تعد في نظر هؤلاء المؤرخين أكثر رقيا من الوثنية ، لكن مع ذلك أدنى من الديانة الوحدة . لأن إدراك التابعين لهذه الديانة الآرية إن تجاوز المحسوس إلى ماوراءه لم يستطع أن يبلغ الغاية هناك ، لم يستطع أن يصل إلى ما يجمع هذين المعبودين ، ومايجمعهما هو « الحقيقة العليا » التي لها اسم الله والتي يجب أن تقتصر العبادة عليها وحدها دون مايليها من موجودات أدناها .

فالديانة الفارسية أشبه بحلقة وسطى بين الديانة البدائية — وهي الوثنية — والأخرى الراقية — وهي الوحدة .

ولو سلكنا مسلك مؤرخي الأديان عند الموازنة بين دين وآخر ، واعتبرنا ماوضعوه من مقاييس للتفرقة — غاضين النظر عن حجية الوحي — لو سلكنا هذا المسلك في توضيح قيمة الاسلام لأرانا هذا الذي عرفناه الآن في الحديث عن جانب من جوانب الطفولة الانسانية أن الاسلام في تحديده «الله» المعبود جل جلاله يمثل حسب مقاييس البلوغ العقلي في نظر الانسان نهاية الرشد والنضوج .

فالله في نظر الاسلام وراء الموجودات جميعها وفوق العالم كله . يخطو الادراك الانساني في تصوره خطوات : من وقف بادراكه عند الحس لم يكن تقدم إليه إلا خطوة . ومن تجاوز الحس إلى معنى مشترك بين جملة من المحسوسات لم يبلغه بعد .. حتى إذا نفذ بادراكه وراء جزئيات العالم عن طريق الترقي في التفتيش عما يجمع الكائنات كلها يكون قد اقترب في تصوره منه ؛ ومع ذلك قلما يكشف عن ذاته وحقيقته كما هي .

فهذه الخطوات في الإدراك بعد الظاهر الحس من الأشياء لاتكون في نظر علماء النفس إلا من الرشيد . وكلما كثرت خطوات الرشيد في إدراكه كلما كان أكثر اكتمالا في معنى الرشد والنضوج .

وصف الإسلام «الله» بأنه واحد في مثل قول القرآن الكريم : قل هو الله أحد... ليس كمثله شيء... ولم يكن له كفواً أحد... وإلهكم إله واحد، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . ووصفه بذلك يدل على أن له الوضع السابق . إذ الوحدة المطلقة التي تعطيها صيغة التركيب في هذه الآيات الكريمة لا تكون إلا لمن انتفى عنه التشخص أولا ، ومعنى الاشتراك فيه ثانياً . وذلك هو الموجود المطلق .

فالوحدة هنا دليل على الإطلاق أو عدم القابلية للتحديد ، كما أن التشخص هناك في الوثنية آية على التعدد والكثرة .

وبعض المسيحيين الذين ألهوا عيسى الرسول عليه السلام يضفون على المسيحية كديانة سماوية — عن طريق تأليهم عيسى — بعض خصائص الوثنية ، لا من حيث الاعتقاد بآلهين أحدهما الأب والآخر الابن ، لكن أولا وبالذات من حيث إن أحدهما يحده الحس والتشخص وهم بذلك يحرفون الكلم عن مواضعه ويستبدلون بآيات الله صنعة الإنسان .

«يتبع» محمد البهي